٤ ـ تركيا

الأستاذ أبو الفتوح عطيفة

طاغية

وعدت القراء فى نهاية المقال السابق أن أحدثهم عن الحركة المجيدة التى أنقذت تركيا من الحرج الذى كانت فيه ١٩٢٠ ومن الأزمات والنكبات التى حلت بها فى ذلك التاريخ ، ولكنى أرى لزاما على أن أشير إلى العوامل الداخلية التى كانت سبب تلك الكوارث بعد أن تحدثت عن أسبابها الخارجية ، وبذلك نضع أمام القراء صورة انحلال تركيا الداخلية والخارجية ثم بعد ذلك نتحدث عن الحركة الكمالية أو حركة الإنقاذ

كانت أوربا تتحدث جميعا منذ القرن الثامن عشر عن قرب انحلال تركيا ، وأكثر من هذا قامت بعض الدول بمفاوضات بقصد تقسيم تركة تركيا . والواقع أن ضعف تركيا كان يرجع إلى عوامل متعددة منها ماهو داخلى ومنها ماهو خارجى

ولعل من أهم العوامل الداخلية كثرة الشعوب والأجناس التى كانت تركيا تحكمها ، فقد كانت تحكم إمبراطورية واسعة يسكنها البلغاريون واليونانيون والصربيون والجبليون والرومانيون والسوريون والعراقيون والمصريون والعرب والمغاربة وغيرهم ، وكانت هذه الشعوب تختلف فى الجنس واللغة والدين والعادات والتقاليد ، وتختلف أيضا عن الدولة الحاكمة فى تلك النواحى الأمر وذلك ماجعل الإمبراطورية العثمانية معرضة للانحلال بمجرد ضعفها

وكان أهم أسباب ضعف تركيا فساد الحكم التركى فى تركيا ذاتها وفى أملاكها ، فقد كان الخليفة أو السلطان رأس الدولة موطن الفساد والانحلال وسبب السوء والضعف

صحيح أن بعض المحاولات للاصلاح قد قامت فعلا ولكنها فشلت .. أولا لأن الدول كانت حريصة على أن تظل تركيا ضعيفة منحلة تستطيع الدول أن تقتطع لنفسها من أملاكها ماتشاء حين تحين الظروف أو تواتى المناسبات . وثانيا لأن العقلية الرجعية كانت تسيطر على الخلفاء الأتراك وحاشيتهم ووزرائهم مما جعل هذه الحركات الإصلاحية عديمة القيمة

وتناهت الأمور إلى السلطان عبد الحميد ١٨٧٦ الذى تولى العرش على أكتاف الأحرار من أبناء حزب تركيا الفتاة الذى كان يتزعمه مدحت (باشا) وقد كانت الحياة النيابية أهم أمانى مدحت الذى كان يرى أن الحياة الدستورية الصحيحة هى السبيل الوحيد لإنقاذ تركيا

وقد كانت تركيا إذ ذاك فى موقف لاتحسد عليه ، فالشعوب البلقانية ثائرة والدول تتدخل لإنهاء الموقف فوجد السلطان عبد الحميد أن خير وسيلة للخروج من هذا المأزق هى إصدار الدستور فهو كفيل بإسكات الأحرار من الأتراك والثوار من رعاياهم ؛ بل أكثر من هذا إنه سيقضى على محاولات الدول للتدخل فى شؤون تركيا

أصدر عبد الحميد الدستور ١٨٧٧ ولكنه كان غير مؤمن به ولذلك لم يلبث طويلا أن قضى عليه فحل البرلمان ونفى مدحت « ذلك المجرم الذى احتل الناس وساقهم فى طريق الغواية » وشتت أنصاره وأتباعه وأصبحت تركيا سجنا للأحرار من الرجال

وأقام عبد الحميد من نفسه طاغية جبارا يتحكم فى الرقاب وينشر الظلم والذل والاستعباد وملأ الحكومة برجال لا أخلاق لهم ولا مبدأ ولا عهد ولا دين ، غايتهم الوحيدة الإثراء وجمع المال بأى طريق « هذا هو العهد الذى كان فيه المال والثروة غرض الحياة الأعلى ، وما كان ذلك الغرض يستدعى سوى أن يتبرأ الإنسان من قومه ويتجرد من شخصيته ويضحى ابنه وأمه وأخته وأصحابه وذمته وكل العواطف الوطنية والمبادئ البشرية »

وحتى لا تتسرب بذور الحرية إلى تركيا منع عبد الحميد الأتراك من السفر إلى الخارج وشدد الرقابة على الصحف والكتب ومنع الصحف التى تصدر فى أوربا من دخول تركيا ؛ وانتشرت الجواسيس وراقبوا الناس وانتهكوا حرمة المنازل وعاش الأتراك تحت نير هذا العسف ثلاثين عاما

ومنع الأئمة والخطباء فى المساجد من ذكر الأحاديث أو الآيات التى تحط من قدر الطغاة والتى تذكر الظالمين بسوء العاقبة ، وكان حديث الجمعة الثابت « إن الله جميل يحب الجمال » أما الأحاديث التى تشير إلى العدل أو تذكر الوالى بمسؤوليته نحو رعيته فكانت ممنوعة منعا باتا

وكشأن الملوك الطغاة المفسدين كان قصر عبد الحميد يعج

بالنساء والجواري . ويذكر المؤرخون الأجانب أن عبد الحميد حين ولي العرش وعد بأن يقضي على تقاليد الخلفاء الذميمة ومنها الإكثار من النساء في قصورهم كما وعد بأنه سيقتصر على زوجة واحدة ولكن لم يمض عام واحد حتى كان عدد الحريم بالقصر السلطاني قد بلغ تسعمائة !

ومدحت (باشا) زعيم الأحرار نفي إلى الطائف حيث قضى بقية حياته على الفجل والماء ! إلى أن مات شهيدا في سبيل الحرية

وكان الطاغية ضعيفا أمام الأجانب وللوقوف في وجههم عمد إلى إذكاء روح الجامعة الإسلامية وكان يهدد الأجانب بمحاولة إثارة المسلمين ضدهم وكان التهديد سلاحه الأول والتسليم سلاحه الأخير

ثورة يوليو ١٩٠٨

حين عطل عبد الحميد الدستور ١٨٧٨ ونكل بالأحرار هاجر كثيرون منهم إلى الخارج . وفي ١٨٩١ اجتمعوا في جنيف وأسسوا جمعية الاتحاد والترقي وظل هؤلاء الأحرار يعملون على قلب حكومة الطاغية التي أنزلت بالبلاد المصائب وذاقت على يد الأجانب الذل والهوان

وفي ديسمبر ١٩٠٧ قرر هؤلاء الأحرار بدء العمل وتقرر أن تكون مقدونيا هي مركز الحركة

وعمد أعضاء الجمعية إلى نشر دعوتهم في صفوف الجيش فانضم أغلب رجاله إليهم وحدد يوم ٣ يولية ١٩٠٨ لإعلان الثورة على يد أركان الحركة أمثال نيازي (بك) وأنور (بك) وصلاح (بك) أولئك الفدائيون الذين حملوا أرواحهم في أيديهم وخرجوا إلى البلاد لهدم كيان الظلم ومحو آثاره

ووصلت أنباء الحركة إلى السلطان فانزعج وأمر أحد رجاله شريف (باشا) بسحق الثورة ولكن الثوار قضوا على تلك المحاولة . واستنجد السلطان بقوات من الأناضول ولكنها سحقت أيضا وبدأت البلاد تسقط تباعا في يد الثائرين . وأنذر الثوار السلطان بوجوب إعلان الدستور فورا وأسقط في يد الثعلب الماكر عبد الحميد واضطر إلى إعلان الدستور وتأليف حكومة دستورية ، ولام مستشاريه على أخطاء الماضي ومظالمه ثم ألغى الجاسوسية وأعلن ترحيبه باستقبال زعماء الثوار فعاد أنور ونيازي على رأس قواتهما إلى سالونيك واستقبلتهم هناك جموع حاشدة متحمسة من اليونانيين والأتراك واطمأن الجميع إلى أن عهد الإرهاب قد زال !

وتدفقت جموع من المنفيين السياسيين الأتراك في تركيا وانضم أكثرهم إلى الضباط الشبان واشتركوا في جمعية الاتحاد والترقي ثم هرعوا إلى القسطنطينية ينشدون الظفر بنصيب من الغنيمة ويتآمرون للاستئثار بالحكم !

لكن الدول لم تدع الفرصة : فالنمسا أعلنت ضم البوسنة والهرسك إليها نهائيا، وبلغاريا أعلنت استقلالها، وقامت الثورات في ألبانيا وفي بلاد العرب

ونشط أعوان السلطان والرجعيون فرشوا بالمال جنود القسطنطينية فقتلوا ضباطهم وأعلنوا ولاءهم لدين الإسلام ! وللسلطان ظل الله في أرضه وخليفة الرسول !

لكن الاتحاديين تقدموا من سالونيك وقضوا على تلك الحركة الرجعية وعزلوا عبد الحميد وسجنوه في سالونيك وتولى السلطان محمد الخامس

لكن نهضة تركيا لم تكن ترضي الدول ولذلك عمدت إلى تحقيق أطماعها فيها ، فإيطاليا استولت على طرابلس ١٩١١ ، وفي البلقان قامت الدول البلقانية ضد تركيا واستطاعت جيوشها أن تنزل بجيوش تركيا الهزائم واضطرت إلى طلب الصلح

لكن شعوب البلقان المتحالفة ضد تركيا وهي بلغاريا والصرب والجبل الأسود واليونان لم تلبث أن انقسمت على نفسها وقامت الحرب بينها ؛ فانتهز الأتراك الفرصة واسترجعوا بعض أراضيهم في شرق ووسط تراقيا بقيادة أنور (بك) فخلص هذا النصر شرف العثمانيين

ولم يمض عام حتى اشتعلت نار الحرب العظمى ووقفت تركيا بجانب ألمانيا . وكانت نتيجة الحرب وبالا على تركيا ففقدت أملاكها واحتل الإنجليز والفرنسيون والإيطاليون عاصمتها ، وأشرفوا على مرافقها ونزل اليونانيون بأرض الأناضول يطمعون أن تكون تلك البقعة الخصيبة حول أزمير ملكا لهم

وسط تلك الأزمة الخانقة جاء مصطفى كمال لإنقاذ تركيا

أبو الفتوح عطيفة